وزارة الإعلام
الهيئة العامة للاستعلامات
سلسلة
حكايات مصر الطيبة
(٢)

عَوْدَةُ البطريَرْك الهارب

بقلم
أبو مسلم يوسف

رسوم
هشام حسين

إشراف : د . إسماعيل عبد الفتاح

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٧٥٥٧ في ٢٠٠٣/١٠/١٣م
الترقيم الدولي / 977-234-051-8

(الطبعة الأولى ٢٠٠٤)

أصدقائى ...

قبل أن أحْكى لكم قصةَ البطريرك الهارب لابُدَّ أن تَعْلَمُوا أنه عندما عَلِمَ المسيحيون فى مصرنا الحبيبة قبلَ الفتح الإسلامى بأن "عَمْرَو بْنَ العاص" يسيرُ لفتح مصرَ بجيش من المسلمين فَرِحَ المسيحيونَ فرحاً شديداً فقد عَلِمُوا من قبلُ أن المدنَ الأخرى التى تَمَّ فتحُها عُومِلَ الأقباطُ من المسلمين معاملةً حسنةً فى حينَ كانَ الرومانُ يقومونَ بمعاملة المسيحيين معاملةً سيئةً للغاية فقد كانوا يَفْرِضُون عليهم الضرائبَ الباهظةَ ومن لا يَدْفَعُها يُلْقُونَ به فى السُّجُون .

وعندما دخل "عمرُ بنُ الخطاب" رضى الله عنه القدسَ دخلَ كنيسةَ القيامة ليُقَابلَ بطريركَ المسيحيين بالقدْس فعندمَا أُذِّنَ لصلاة الظُّهْر قال البطريرك يمكنكَ أن تصلِّىَ هنا فى الكنيسة يا أميرَ المؤمنين فقال "عمرُ بنُ الخطاب" رضى الله عنه وأَرْضَاه .. لاَ ، فلَوْ صليتُ هنا سوف يَظُنُّ بعضُ المسلمين أن الكنيسةَ يجبُ أن تُصْبح مسجداً لأننى صليتُ فيها ونحن المسلمين لا نأخُذ بشىء لا نملكه وخرجَ ليُصَلِّىَ خارجَ الكنيسة .

وتداولَ الناسُ تلك الحكايات إلى أن وصلت إلى الأنْبَا بنْيَامين بطريرك النَّصَارى فى ذلك الوقت والذى فَرَّ هارباً من أذى الرومان فى قلب الصحراء عندما قَبَض عليه الرومانُ ذاتَ مرة ووضَعُوه على منْضَدَة وأشعَلُوا تحتها النيرانَ لتَشْوىَ النارُ جَسدَه وظلت آثارُ التعذيب فى جَسَده فترةً طويلة

للضغط عليه لتَرْك مذهب الكنيسة المصرية واتّبَاع مذهب الكنيسة الأوروبية فى ذلك الوقت ولم يَستَجب لهم وفَرَّ هارباً منهم يَتْبَعُه أتباعَه وأنصارُه من المسيحيين فى مصرَ وعندما عَلمَ بمعاملة المسلمين الحسنة للمسيحيين أعطَى تعليماته للإخوة الأقباط فى مصر بالوقوف مع المسلمين ضدَّ الرومان إلى أن تم فَتْحُ مصرَ على يد "عَمْرو بْن العاص".



وعَقَدَ "عَمْرُو بن العاص" مع المسيحيين اتفاقاً أعْطَاهُم فيه كلَّ حقوقهم التى كان الرومان قد أخذُوها منهم وخَفَّضَ الضرائبَ التى كانوا يَدْفَعُونها وتركَ لهم كنائسَهم يَتَعَبَّدُون فيها دُونَ مَسَاس بها إلى أن جاء إلى منزلِ "عمرو بنِ العاص" الراهبُ مينَا وطلَبَ مقابلتَه فلما دخل عليه قال له :

- أيها الأميرُ إنك أميرٌ عادلٌ وقد أنْصَفْتَ المظلومين وأنْقَذْتَنا من العذابِ الذى كان يصيبُنا على يد الرومانِ .

قال "عمرو بن العاص" : هذا هو العدلُ وقد أمرَنا الإسلامُ بذلك والرسولُ ﷺ أوْصَانا أن نُحْسِنَ معاملةَ أهلِ مصرَ .

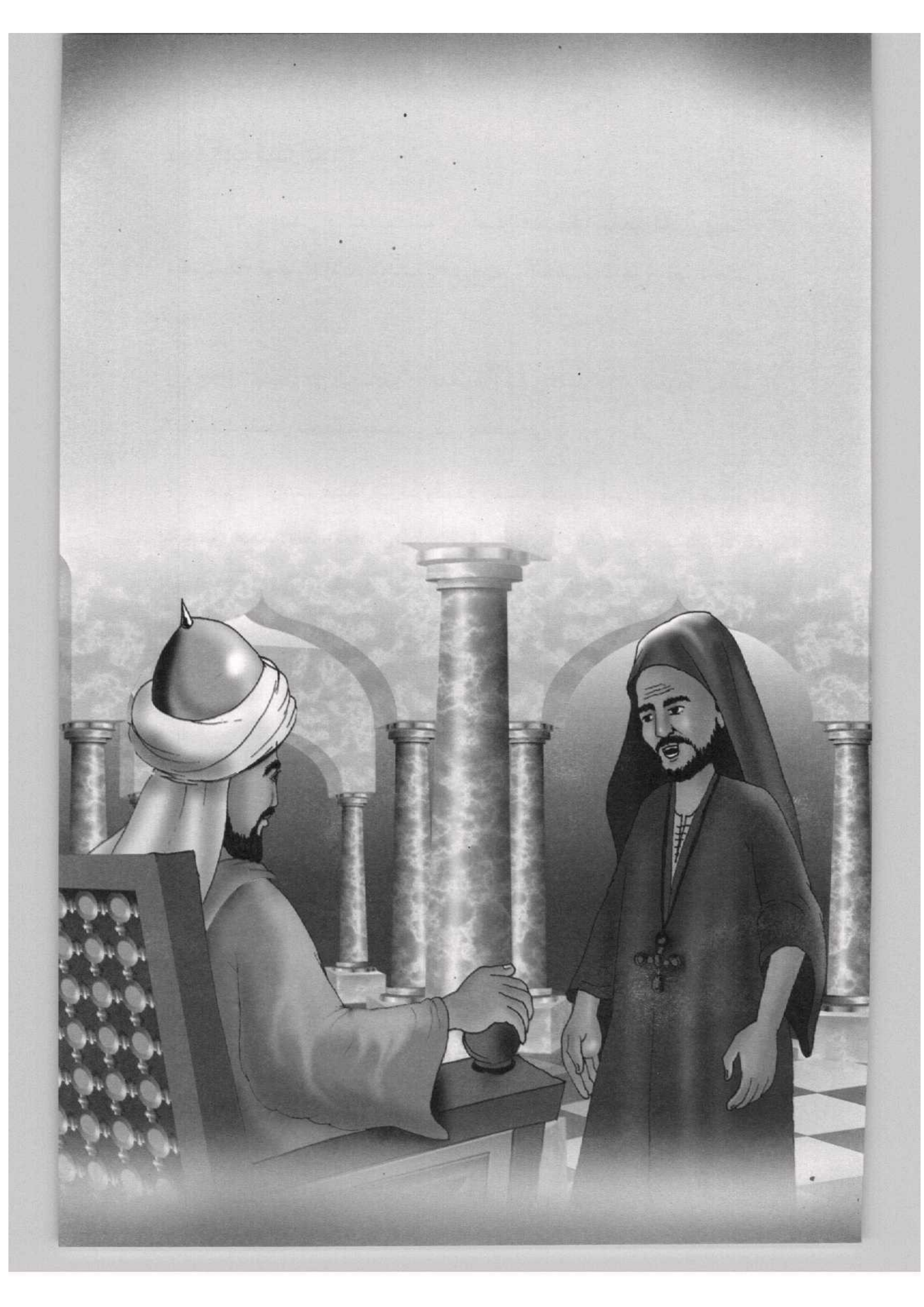
فقال له الراهبُ مينَا : هل تَسْمَحُ لى أن أطْلُبَ منك معروفاً جزاءَ مساعدتِنا لكم فى الحربِ ضد الرومان .

قال "عمرو بن العاص" نعم فَقَد ساعَدْتُمونا كثيراً . ما طَلَبُك ؟

قال مينا : سيدُنا البطريرك بنْيَامين هاربٌ من الرومان منذُ سنوات طويلة لأنهم كانوا يُريدُونَ قَتْلَه . فهل يمكنُ أن يعودَ من الدَّيْرِ السِّرِّى الذى يَخْتَبِىءُ فيه فنحن نُحبُّه جداً ونريدُ أن يعودَ إلى الكنيسةِ .

قال "عَمْرُو بنُ العاص" : هل تعرفُ المكانَ الذى يَخْتَبِىءُ فيه ؟

فخافَ الراهب مينا أن يُخَالفَ أوامرَ البطريرك بنيامين بالإفْصَاحِ



عن مكانه فقال له :

- لا .. ولكن إذا أَعْلَنْتَ أنه فى أمانٍ فسوفَ يَبْلُغُه الخبرُ ويعودُ إلى الكنيسةِ ليُفرِحَ المسيحيين فى مصرَ الذين تَعَذَّبوا كثيراً على أيدى الرومان .

قال "عَمْرُو بنُ العاص" : أَبْلِغُوه أَنَّهُ فى أمانٍ ومن حَقِّهِ أن يعودَ إلى كنيسَتِه ونحن نَحْمِيه ونَحْمِى كُلَّ مَسيحى .

خرجَ الراهب مينا فرحاً وقطعَ رحلةً طويلة إلى الدَّيْر السِّرِّى الذى يَخْتَبِىءُ فيه الأنبا بنيامين بطريرك النصارى آنَذَاكَ وهو يصيحُ "عمرو بن العاص" أَعْطَى البطريركَ الأمانَ ... "عمرو بن العاص" أعطَى البطريركَ الأمانَ ... فخرج البطريرك على أَثَرِ الصوتِ وقال له :

- ماذا تقول يا مينا ؟

قال الراهب : سيدى البطريرك . "عمرُو بنُ العاص" أعطاكَ الأمانَ لتعودَ إلى الكنيسةِ وهو يحميكَ ويحمِى كُلَّ المسيحيين .

قال البطريرك : شكراً للرَّبِّ الآنَ أعودُ إلى الكنيسة .

وخرَجَ البطريرك من الدير السِّرِّى إلى الإسكندرية واسْتَقْبَلَه المسيحيون فى الإسكندريةِ وهم مسرورون برفعِ الظلم ورحيلِ الرومان وعودةِ البطريرك المحبوبِ الذى أنصفه "عمرو بن العاص" بعد سنواتٍ

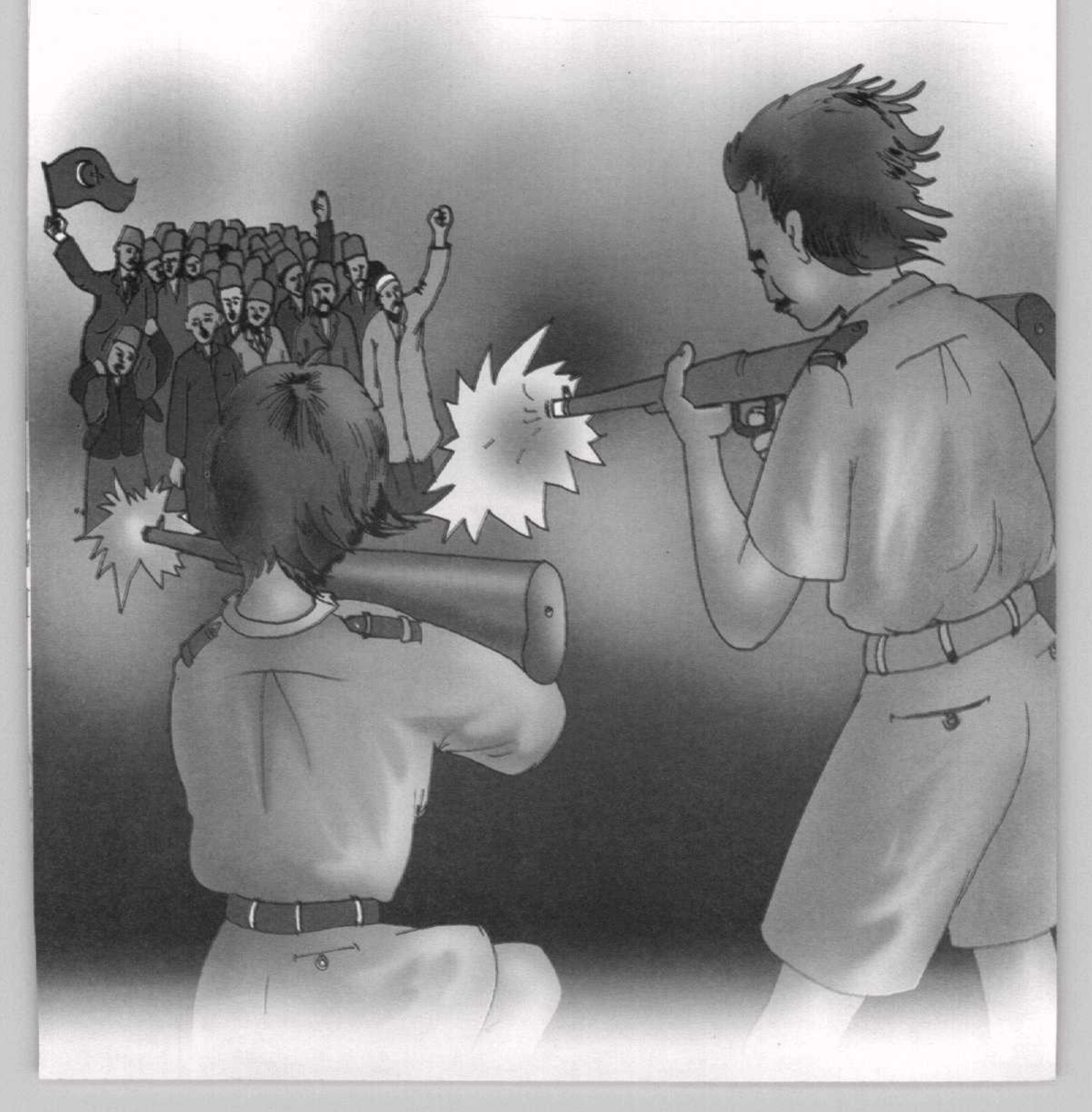
طويلة من العذاب والمُطَارَدَة والاخْتفَاء .

وهكذا أصدقائى عاد بطريرك النصارىَ إلى كنيسة الإسكندرية يُمَارِسُ شعائرَ الصلاة ويتولَّى الأمورَ الدينيةَ للإِخْوَة المسيحيين فى مصرَ كما أمَر الإسلامُ .... وتعايَشَ المسلمون بمصر والمسيحيون معاً كُلٌّ يتعبدُ الإلهَ الواحدَ بديانته ، والحكمُ بمصرَ للجميعِ لا فرقَ بين مسلمٍ ومسيحى .



الْقسُّ سَرْجيُوس
عَلَى مِنْبَرِ الأَزْهَر

عندما جاءَ الاحتلالُ الإنجليزىُّ على مصرَ عام ١٨٨٢ كان الإنجليزُ يظنونَ أن المسيحيين بمصرَ سَيُرحِّبُون بهذا الاحتلالِ ويتعاونون معه باعتبارِهم مسيحيين مِثْلَهم ولكن المسيحيين فى مصرَ كانوا يَعْلَمُونَ



أن هذا الاحتلالَ جاءَ طمعاً فى خيرات مصرَ وأن هدفَه النهبُ والاحتلالُ وأنهم لازالُوا يذكرونَ للصليبيين عندما هاجموا مصر قتلوا منهم ثلاثمائة طفل مسيحى ليُرْغِمُوهم على اعْتناق المذهب الكاثوليكى الغربى ففوجىءَ الإنجليز أن المسيحيين فى مصرَ يُقَاوِمُون وجودَهم مثلَ المسلمين وكذا مسيحيو السودانِ الذين يَتْبَعُون الكنيسةَ المصريةَ يُعَارِضُونَ الاحتلالَ الإنجليزى وقبل ثورة ١٩١٩ أرسلت الكنيسةُ المصريةُ



القسَّ "سرجيوس" ليَرْعَى أتْبَاعَها فى السودان وكان الإنجليزُ يَحْتَلُّونَ السودانَ أيضاً ويعاملُون أهلَه أسوأ معاملةٍ وقد كان القس "سَرْجيُوس" يَدْعُو إلى استقلالِ البلادِ من الاحتلالِ الإنجليزى ويدعُو إلى التخلصِ منه وكان الحاكمُ الإنجليزى يكره "سَرْجيوس" بسببِ هذا التَّحْريضِ ويريدُ التخلصَ منه فأرسلَ الحاكمُ جنوداً من الإنجليز يمنعون الناسَ من دخول الكنيسةِ التى يخطُبُ فيها القسُّ وعند دخوله هو قَبَضُوا عليه ووضعُوه فى سيارةٍ ذهبت به إلى مكتبِ الحاكم الإنجليزى "مسْتَرْ مورْ" .

دخل "سرجيوس" غاضباً على الحاكم الإنجليزى مُحَدِّثاً إياه بقوله :

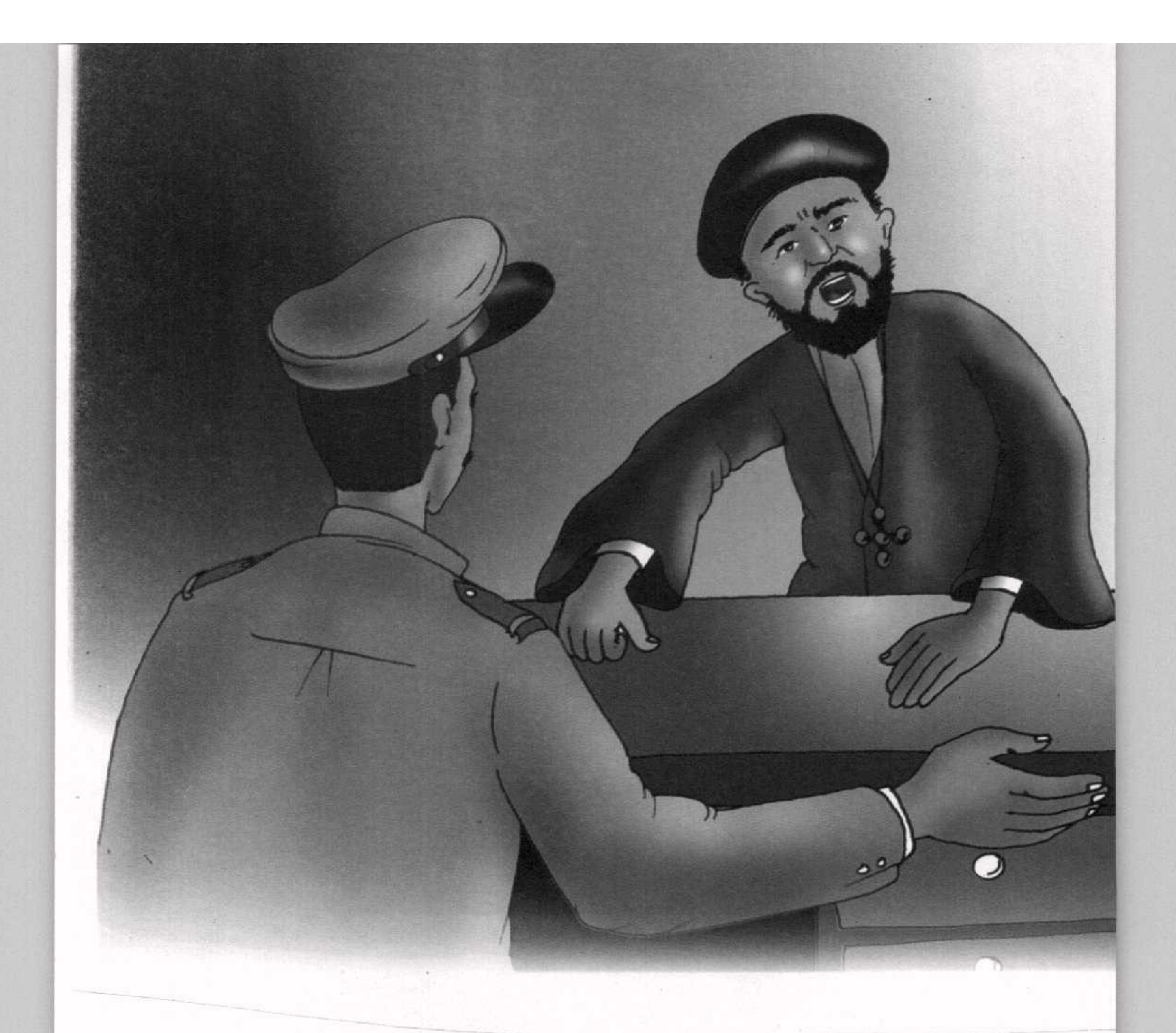
- هَلْ ما يَفْعَلُونه فى الكنائس يَرْقَى لأسلوب دولةٍ عُظْمَى مُتَحَضِّرَةٍ تَدَّعى أنها تُوَفِّرُ الحريةَ لرَعَايَاها ؟

- فأجَابه بأنك أنتَ السببُ لتَحْريضك الناسَ علينا .

- فقال القس :

- وهل كنتَ تريدُ أن نُرَحِّبَ بكم ؟ هذه بلادُنا فارْحَلُوا عنها إذا كنتم لا تريدون ثورةَ الناسِ وإذا لم تخرجُوا فسوف أُحَرِّضُ الناسَ على الثورة ، سواء كنتُ فى مصرَ أو السودان فقال "مستر مور" :

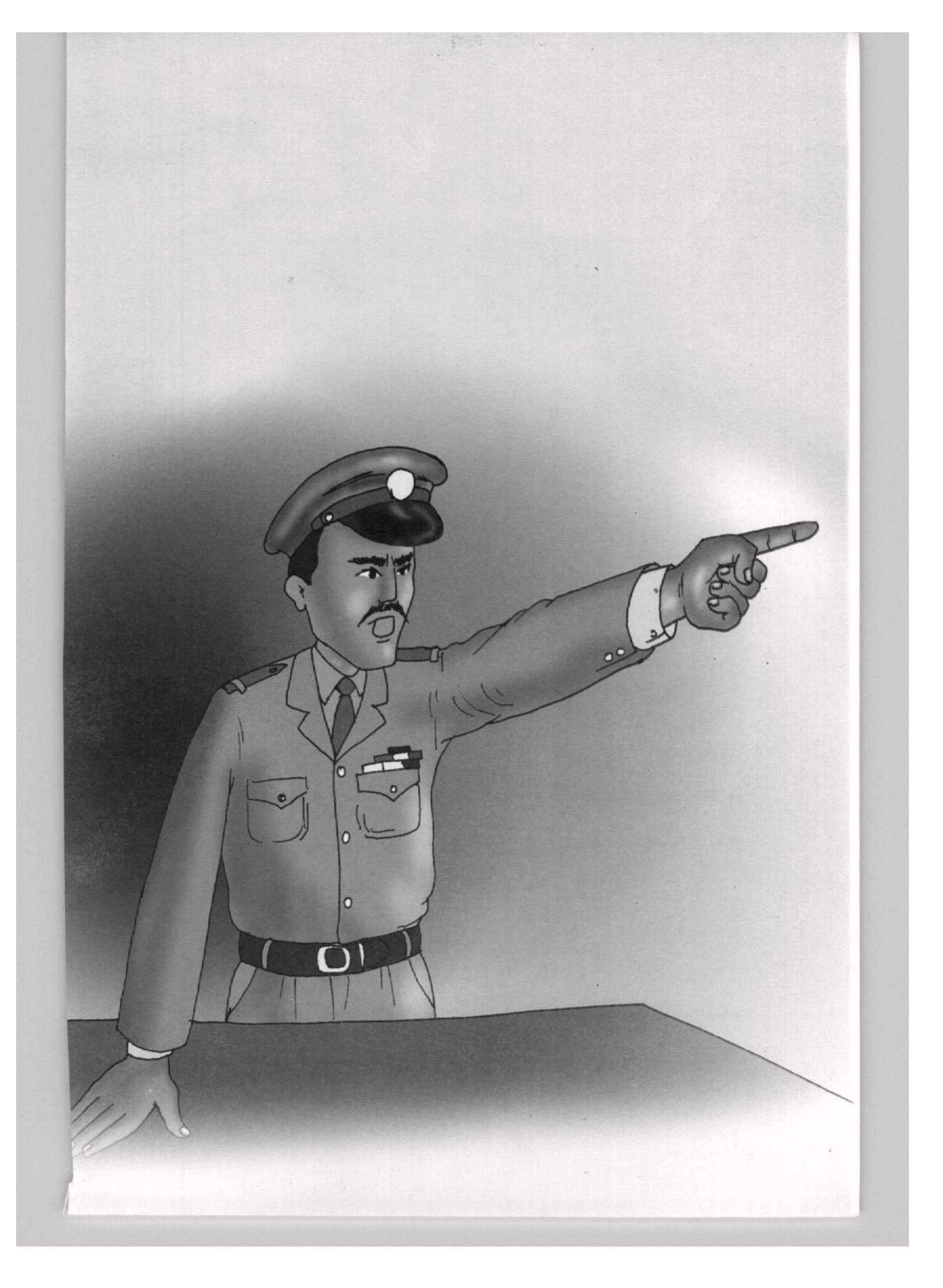
- إننا مسيحيون مثلَك ونحن هنا لحمايتك وحماية أمْثَالكَ من المسلمين ولو عُدْنَا إلى بلادنا كما تقولُ سوفَ يَضْطَهدُكم المسلمون .



- قال "سرجيوس" لقد عشْنا أكثرَ من ألفِ عامٍ معاً فى هذه البلد فلم يَضْطَهِدْنا المسلمون أبداً وقبلَ فَتْحِ بلادنا من المسلمين كان يَضْطَهِدُنا مسيحيون مثلَنا أسْوأَ اضْطهادٍ .

- فَلَم نعرفِ الحريةَ إلا بعدَ الفتحِ العربِى الإسلامِى .

- المسيحيون الرومانُ أرادُوا أن يَفْرضُوا علينا المذهبَ الكاثوليكِى بالقوة أمَّا المسلمون فتركُوا لنا حريةَ العبادةِ ووفَّرُوا الحمايةَ لنا



ولكنائسنا . وهذه الحمايةُ ليست إلا شعاراً كاذباً ترفعُونَه لِتُبَرِّرُوا التدخلَ فى شئون بلادنا ونَهْبِ ثَرَوَاتِنَا وقد عَرَضَها من قبلُ قيصرُ روسيا ورَفَضْنَاها .

وغَضبَ الحاكمُ الإنجليزى من "سرجيوس" وقال له اُخْرُجْ فوراً وَأَمَره أن يعودَ لمصرَ .

وعادَ القسُّ "سرجيوس" إلى مصرَ وأقامَ فى منزله بشارعِ الفَجَّالَة بالقاهرة . وكان "سعدُ زغلول" زعيمُ الوفد يقودُ ثورةَ ١٩١٩ التى اشتركَ فيها المسلمون والمسيحيون ضد الإنجليزِ من أجلِ استقلالِ مصرَ إلى أن قام الإنجليزُ بنَفْيِه خارجَ البلاد . وذاتَ يوم سَمعَ "سرجيوس" صوتَ هتَافَات عالية "الاسْتقْلاَلُ التامُّ أو الموتُ الزُّؤَامُ" سَعْد سَعْد يَحْيَا سَعْد فنزل "سرجيوس" من منزله واشْتَرَكَ فى المظاهرة حتى وصلَتْ إلى الجامعِ الأزهرِ ودخل القس "سرجيوس" الجامعَ الأزهرَ ووقف يخطبُ على منْبَرِ الأزهر ويهاجمُ الإنجليزَ ويطالبُ بالاستقلال وعودة سعد زغلول من المنفَى وظلَّتْ خُطَبُه تُلْهِبَ مَشَاعرَ المسلمين والمسيحيين معاً من أجلِ استقلالِ البلاد ولم يسْتَجبْ للمندوب السامى البريطانى بالتوقُّف عن الخَطَابَة والتَّحْريض على الثورة محدثاً إياه أن جُنودَكم أيها المندوبُ السامى لا تُفَرِّقُ فى إطلاقِ الرصاصِ بين مسلم ومسيحى وهذا وطنُنا جميعاً مسلمين ومسيحيين ولن تَخْدَعُونا بالكلام عن حماية المسيحيين وظل "سرجيوس" يخطبُ فى الجامعِ الأزهر والمساجد



والكنائس لمدة شهرين إلى أن قررَ الإنجليزُ الإفراجَ عن سعد زغلول ورفَاقه والسَّماحِ له بالعودة إلى مصرَ من المَنْفَى بعد أن وصَلَتْ الحكومة بريطانيا تقاريرُ تفيدُ أن المسيحيين يساندُون الثورةَ ومنهم مَكْرَم عبيد والقس "سرجيوس" .

ويومَ عودة سعد زغلول باشا من المنفَى وقفَ القس "سرجيوس" يَخْطُبُ أمام الجماهيرِ ثم قال لهم اهْتِفُوا مَعِى .

"يَحْيَا الإنجليزُ"

وانْدَهَش الناسُ من الهُتَاف ولم يَفْهَمُوا لماذا يَهْتفُ القسُّ للإنجليز وَهُمْ أعداءٌ يحتلونَ البلادَ .

فقال القس : نَعَم يحيا الإنجليزُ لأنهم ظَلَمُوا شَعْبَنَا .

أرادُوا أن تَحْدُثَ فُرقَةٌ بين المسلمين والمسيحيين فأصْبَحْنَا صفاً واحداً ويداً واحدةً إلى أن قَبَضَ عليه الإنجليزُ واصْطَحَبُوه إلى السجن وفى الطريقِ فى محطةِ القطارات كلنا مصريون وكلنا نكرَه الإنجليزَ لا فَرْقَ فى ذلك بين شيخِ جامعٍ أو قسٍّ فى كنيسةٍ إن رَصَاصَ الإنجليز لا يفرقُ بين مسلمٍ ومسيحىٍ .

وظل فى السِّجْنِ يخطبُ فى المساجين ويشرحُ لهم حقيقةَ الاحتلالِ الإنجليزى ولَمَّا يَئِسُوا من تغيُّر موقفه قرروا إطلاقَ سَرَاحه وعند خرُوجه من السجن ذهبَ إلى الجامعِ الأزهر وصَعدَ المنبرَ وخطبَ فى الناس وخرَج بهم فى مظاهرة وعندما شاهده أحدُ ضباط الإنجليز أخرجَ مُسَدَّسَهُ من جرَابه ووجَّهَهُ إليه مهدداً إياه إذا لم يَتَوقفْ سوف يَقْتُلُه فَرَدَّ عليه .

أنا لا أخافُ الموتَ أيها الضابطُ وإذا متُّ فِدَاءً لمصرَ وهذا شرف لى وسوفَ تستمرُّ الثورةُ ضِدَّكُم وتعالَتْ أصواتُ المتظاهرين : دَمُنَا فداءٌ لمصرَ

... يعيشُ القس "سرجيوس" وانسحَبَ الضابطُ وتركَ المظاهرةَ وقد عاشَ "سرجيوس" حتَّى رأى رَحيلَ الإنجليزِ عن مصرَ وكان من أشهرِ أقواله .

"إذا كان الإنجليزُ يتمسَّكُون بالبقاءِ فى مصرَ بحُجَّةِ حمايةِ المسيحيين فَلْيَمُتِ المسيحيون ولْيَحْيَا المسلمون أحْرَاراً" .